المغولي الاخير: نهاية الامبراطورية وتاريخ مدينة دلهي في زمن العصيان

عن الامبراطور الذي حاول انقاذ تاريخ آبائه.. واثر الاستعمار والتبشير على مدينة النور

ابراهيم درويش *

■ من المشاهد التي حفرت في الذاكرة العربية وتخيلها الفنانون والشعراء، وتمت استعادتها من كل الزوار مشهد آخر ملوك العرب في غرناطة وهو يسلم مفاتيح مملكته للمنتصرين الاسبانيين فرديناند وايزابيلا الاراغونية، وما حفر في الذاكرة هي كلمات والدة ابي عبدالله الصغير وهي تعنف ابنها، تلومه وتعزيه على ضياع الملك الذي لم يحافظ عليه مثل الرجال، ولكن مشهد ملك او حاكم وهو يسلم مدينته، مملكته او يقع في قبضة الاعداء ويتعرض للاهانة، فالرومان كانوا يسوقون اعداءهم من الملوك غير المحظوظين بالاغلال ويطاف بهم في احياء وشوارع روما، وزنوبيا الملكة العربية اقتيدت بالاغلال، وانتحرت فيما بعد، وكذا كليوباترا المصرية، ولكن هناك ملوك يقبلون اسرهم مثل ابو عبدالله ويتكيفون مع واقعهم الجديد، كما حدث مع ابن عباد الذي سجنه ابن تاشفين في اغمات وتذكر ايام العز في الاندلس وهو يرى بناته «يغزلن للناس لا يملكن قطميرا»، الغازي او المنتصر في الغالب يحرص على ايقاع الاهانة القصوى للملك الذي سقط من علوه.

وقصة اخر ملوك المغول الامبراطور بهادور شاه ظفر (175ـ1862) هي تجسيد لما حدث للملك الشاعر والصوفي والحاكم المنفتح حيث حرص المنتصرون الانكليز على محو اي اثر يشير الى ان هذا «الحاكم المحمدي »(المسلم) وجد فعلا وحكم مملكة في اخر ايامها، وشكل ذاكرة مدينة دلهي او دهلي، عندما مات اخر ملك مغولي كتم القائد الانكليزي الخبر وتأكد ان كفنه وقبره الذي غطي بالكلس سيذوب في وقت قصير وبذلك ينمحي اثر اخر ملوك المغول، حفيد جنكيز خان وتيمورلنك.

ظفر او الملك بهادور شاه الثاني عندما مات في يوم مغبر بمدينة رانغون، مانيمار اليوم، التي اصبحت منفاه الاخير، كان قد بلغ نهاية الثمانينات من عمره، وشهد سيطرة الانكليز على كامل الهند، وصعودهم كامبراطورية. ولكن هذا الحاكم التعس الذي ارتبط اسمه بنهاية مجد المغول، الذين ولدت لغة الاردو في بلاطهم وتركوا للعالم اهم الاثار الحضارية والفنية، تاج محل لم يذكر اسمه الا لماما في كتابات المنتصرين، ويبدو ان اخفاء اسمه ومحوه من التاريخ والذاكرة كان هاجس المنتصرين، فرسائل القائد العسكري الكابتن اتش ان ديفيس تتحدث عن ترتيبات محدودة لدفن اخر ملوك المغول واجراءات تعني اختفاء اثره، فقبره بعد شهر صار بلا شاهدة ومدينته التي رعاها وبنى مشاهدها عبث بها الجنود، فالقصر الاحمر عندما دخله الانكليز دمروا مقر الحريم فيه واقاموا معسكرات لهم فيه. فقد كتب الكابتن يقول بعد ان قال ان موته لم يؤثر على الحريم التعيسات اللائي تركهن وراءه، وقال ان روحه صعدت لبارئها في الساعة الخامسة (شهر تشرين الثاني / نوفمبر) في صباح يوم الجنازة. واضاف ان موت الملك السابق لم يؤثر كثيرا على حياة «المحمديين» في رانغون، «باستثناء حفنة قليلة من المتطرفين الذين راقبوا الجنازة في النصر الاخير للاسلام». ويضيف «لقد بني سياج من القصب حول القبر، ومع اختفاء السياج تكون الاعشاب قد عادت ونبتت على القبر، ولن تبقى اي علامة تظهر المكان الذي ارتاح فيه اخر ملوك المغول العظماء». تلخص هذه الشهادة هوس الانكليز في نهاية او انهاء الحكم المغولي. كما تظهر الوثائق التاريخية كيف ان الملك المغولي الاخير كان ايضا مسكونا بحس النهاية وحس الحفاظ على ما تبقى له من ملك، بعد ان بدأت شركة الهند الشرقية تظهر حضورها في الهند، وبدأت قلاع المغول والحكام الهندوس تتساقط امام الزحف البريطاني. ومن هنا ظلت مدينة دلهي، باعتبارها رمزا لاستمرارية الحكم المغولي مصدر قلق للجيل الثاني من الانكليز العاملين في شركة الهند الشرقية. وسنلاحظ ان صعود التعصب الديني المسيحي، والحس الايفنجيلكاني المتحمس، الذي بدأ يتسيد شركة الهند الشرقية كان مدفوعا ليس بحس التخلص من الامبراطور المغولي، ولكن التبشير بالانجيل. وفي الوقت الذي لم تكن فيه النخبة المسلمة في الهند مهتمة بهذا الجانب، الا ان دعوات التبشير التي بدأت تظهر داخل دلهي، واثرت على طبيب الامبراطور الذي اعتنق المسيحية بعد ان كان هندوسيا، قد اشعلت مشاعر القلق لدى عدد من المسلمين، خاصة الاحيائيين الذين لم يكونوا يكنون حبا للمغول، خاصة ان اباطرة السلالة المغولية كانوا متساهلين ومنفتحين. وحركة الجهاد التي بدأها سيد احمد بارئلي، وشاه عبد العزيز حفيد شاه ولي الله الدهلوي، المصلح المعروف، تمثل نوعا من الرد على هذه الدعوات ومحاولات لانقاذ الاسلام في الهند واعادة مجده. وفي حالة اخر اباطرة المغول، ظفر، فانه جاء للحكم متأخرا، اي بعد وفاة والده، وعندما نصب امبراطورا كان في الستين من عمره، اي جاء متأخرا لكي يحدث اي نوع من التغيير، ومن هنا فقد انصب هم الامبراطور الذي كان راعياً للادب والعلم، على التأكد من تنصيب ابنه ميرزا جوان باخت، ابن زوجته المفضلة نواب زينات محل، مع ان الانكليز كانوا يفضلون الابن الاخر للامبراطور ميرزا فخرو، الذي كان شاعرا وخطاطا ومفضلا كوريث للاب، وعندما مات بالكوليرا او كما قالت شائعات انه مات مسموما، حاول الامبراطور التأكد من ان ابنه ميرزا جوان باخت هو وريثه الحقيقي. ولكن الانكليز، كانوا يعتقدون وقد زادت قوتهم وغطرستهم التي تزاوجت بحس ديني تبشيري ان الامبراطور ظفر يجب ان يكون نهاية خيط السلالة المغولية، ولهذا رفض ممثلو شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية الاعتراف بوريث الامبراطور. يلاحظ ان جهود الكتابة التاريخية عن ظفر قليلة، فعدم الاشارة للملك بكونه ملك دلهي او تجاوز ذكره في تواريخ الراج كانت لارتباطه بوعي او بدون وعي بالانتفاضة التي اندلعت في مملكته ضد الانكليز عام 1857 وهي الانتفاضة التي كانت واحدة من العلامات المهمة في تاريخ الوجود الانكليزي في الهند والمحاولة الاخيرة لاعادة المجد الاسلامي في شبه القارة الهندية الذي بدأ يأفل قمره منذ محاولات الامبراطور اكبر انشاء دين عام يجمع كل اتباع مملكته فيما صار يعرف بـ(دين الهي) وهو الدين الذي لم يعجب مواطني المملكة المسلمين والهندوس وحتى المبشرين.

كان دخول الملك بهادور شاه او مشاركته في الانتفاضة بدون ترتيبات فهو لم يكن قائد المرحلة عندما قامت فرقة خاصة من الجنود «سيبوي/ سباهي» بدخول دلهي واعلان العصيان، ولكن الانكليز الذي قاموا باخماد الانتفاضة وقمعها بيد من حديد وقتل الالوف بطريقة وحشية حسب شهادات الجنود الذين سجلوا فظاعة المعركة عندما قالوا انهم وان لم يتعاطفوا مع السكان الا ان اصوات النساء والاطفال وصور الرجال العجزة الذين كانوا يحضرون للقتل عاشت في ذاكرتهم. ومن هنا حرص المنتصرون على اهانة الحاكم الذي لم يحفظ الجميل ، فمملكة دلهي ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر اصبحت آخر مملكة يسيطرون عليها، ومن هنا فوجود الملك المغولي وسلطته الاسمية لم تكن حقا اعطاه له السكان ولكن منحة وهبة من الانكليز، ومشاركة الملك الظافر بهادور فيها اعتبره الانكليز بمثابة الخيانة. الملك ظفر هو الاسم الادبي الذي اتخذه الملك الذي كان شاعرا معروفا في فن الغزل وخطاطا ترك عددا من الاعمال المهمة، وكان راعيا للادب والشعر، ووليا صوفيا في نظر مشايخ الحركات الصوفية، في بلاطه تنافس الشاعر الاكبر او متنبي الشعر الاردو غالب ومنافسه او خصمه زاوق.

في كتابه الصادر في لندن، والذي قضى في اعداده اربع سنوات متتالية ويمثل خبرة عشرين عاما في التاريخ المغولي وتاريخ دلهي، يقدم الكاتب البريطاني ويليام داريليمبل قصة المدينة وقصة اخر ملوك المغول الذين حكموا الهند اكثر من ثلاثة قرون، وتاريخ الامبراطور يتجادل مع تاريخ المدينة، فالباحث يحاول احياء الحياة الجميلة والايام السعيدة للامبراطور الاخير الذي حاول جاهدا الحفاظ على ما تبقى من مملكة ابائه، ويعتمد داريليمبل ولاول مرة على الوثائق التي تعود الى العهد المغولي المحفوظة في الارشيف الهندي وعلى مصادر اولية كتبها باحثون باكستانيون وهنود لم تلق عناية من الباحثين الانكليز، وتظهر صورة الامبراطور في حياته اليومية، وروتينه الذي كان يبدأ مع تباشير الصباح بالصلاة والذكر وفطور خفيف ثم استعراض للحرس وتفقد لاقسام قصره، وحريمه وعبيده وما اكثرهم ثم جلوسه للاستماع الى شكاوى ومطالب المواطنين. وتظهر مدينة دلهي في عهده كمدينة اسلامية بكل طقوسها، واطيافها، ومع ان والدة الامبراطور كانت هندوكية، وكان هناك نوع من التسامح الكبير فيما يتعلق بالهندوس وديانتهم، والعصر المغولي منذ الامبراطور اكبر معروف بتسامحه مع الغالبية الهندية، فهناك الكثير من الاشارات عن قيام الامبراطور بمنح الهندوس حجارة ومواد بناء جمعها المسلمون لبناء مسجد، حيث كان يمنحها للهندوس، كما ان المسلمين منعوا من ذبح البقر المقدس لدى الهندوس، وعندما اشتكى احد المسلمين الى الامبراطور بهادور قال له ان «الاسلام لا يعتمد في وجوده على البقر». امام انفتاح وازدهار الحياة في مدينة دلهي نعثر على قلق من ان كل ما في المدينة متعلق بوجود او رحيل الامبراطور. والاخير الطامح لحماية مجد عائلته، لدرجة انه كتب مستعطفا الملكة فيكتوريا متحدثا اليها انه في نهاية «حجنا على هذه الارض» يجب علينا ان نحمي مكتسباتنا. وما دام حس النهاية واضحا ووارد في ذهن الامبراطور، فقد كان اوضح في شعر غالب (مرزا اسد الله خان 1797ـ1869) والذي وان لم يكن قريبا من الملك، الا بعد وفاة خصمه الشاعر الاخر، واستاذ الامبراطور ظفر، الا ان شعره في مرحلة ما بعد 1854 يؤرخ لنهاية، حصار، وتدمير نيودلهي، وكثيرا ما تساءل غالب عما سيحدث له وهو الارستقراطي الذي رفض ان يكون استاذا للغة الفارسية في كلية دلهي التي انشأها الانكليز لان مديرها رفض استقباله امام الباب. ويرسم داريلمبيل صورة من الترقب والتحفز بين كل الاطراف التي كانت تحاول انهاء الاخر، فالقادة الانكليز كانوا متأكدين من ان فرصة التخلص من الامبراطور باتت قريبة. ويبدو ان موقف الانكليز خاصة المبشرين من دلهي انها ظلت مدينة في العمق اسلامية، ولم تدخلها مظاهر الحداثة التي غزت مدنا اخرى مثل كلكتا، وبنارس وغيرهما. وبالنسبة للمبشرين فداخل ابواب دلهي كانت الرذيلة والشهوة تنتشر. فهي مدينة الاثم التي سرقت من جنة الله ويجب القضاء عليها. جاء هذا مع ان المبشرين لم ينجحوا لا في اقناع المسلمين ولا الهندوس. وظل الامبراطور يجذب الطرفين، فالهندوس والمسلمون كانوا ينظرون اليه باعتباره حجر الاساس لتاريخهم العريق. ومن هنا فان الامبراطور ظفر ايضا اتخذ قرارا في صباح يوم من كانون الثاني (يناير) عام 1857 لدعم ثورة السباهي متأملا انها اخر امل له في تأمين ملكه وهو قرار سيعض اصابعه ندما عليه.

جانب اخر، يقدمه داريليمبل، في كتابه الغني بالمعلومات والصور عن الماضي القديم هي ان هناك جيلين من الانكليز حكما الهند، الجيل الذي كان يفهم اللغة وثقافة الناس او ما اسماهم الكاتب في كتاب اخر هو «المغول الابيض» الذين تقبلوا الثقافة الهندية وتعايشوا معها. ولكن هذ الجيل الذي كان من ممثليه ويليام جونز ووارن هاستينغ لم يعد موجودا وحل محله جيل من الحكام والقادة الذين تأثروا بتعاليم المبشرين من شاكلة المبجل ميديغلي جون جيننيغز. في قراءة كتاب «المغولي الاخير» نعثر على صورة بشعة عن القسوة التي مورست ضد سكان دلهي، عن جنود كانوا يقتلون السباهيين وهم يرددون الايات من الانجيل، عن قادة ارادوا ان يمحوا دلهي من على الخارطة (تذكروا عبارات ايهود اولمرت، رئيس الوزراء الاسرائيلي الذي اراد ارجاع لبنان عشرين عاما للوراء).

كتب داريليميبل تاريخا للعصيان او الانتفاضة الهندية بشكل مثير ودرامي، وقدم في داخله الظروف التي قادت الى العصيان، مقدماته، التي تعود الى تاريخ السياسة الاستعمارية وافول سطوة المغول. وفي داخله قدم صورة عن تاريخ المدينة التي قال انه ذهب اليها في منتصف الثمانينات من القرن الماضي، وكتب عنها اول كتاب «مدينة الجن»، ثم جاء «المغول الابيض» واخيرا «المغولي الاخير». رواية جديدة عن العصيان الهندي الذي أدى الى ولادة حركة الجهاد، ونهاية المغول. وبذرت بذور النهاية للبريطانيين في الهند التي جاءت في احداث العشرينات ثم قادت للتقسيم عام 1947. وفي داخل حكاية المغول يبدو الامبراطور الذي اصبح في منظور الانكليز قاتلا وارهابيا مع ان مراسل صحيفة «التايمز» قد زاره في منفاه، وقد اعياه المرض والعجز وبدلا من القسوة في عيون الامبراطور الاخير وجد الصحافي رجلا حالما، واضاف قائلا «لم استطع الا التفكير وانا انظر لهذا الرجل العجوز، من ان حكامنا هم الملومون على الجرائم التي ارتكبها» اي الرجل العجوز. كلمات الكاتب الاخيرة عن ادموند بيرك والذي كان من اكبر نقاد بريطانيا في الهند حيث قال ان الذين يفشلون بالتعلم من التاريخ، في الغالب يعيدون ارتكاب الاخطاء، (تذكروا بوش وبلير).

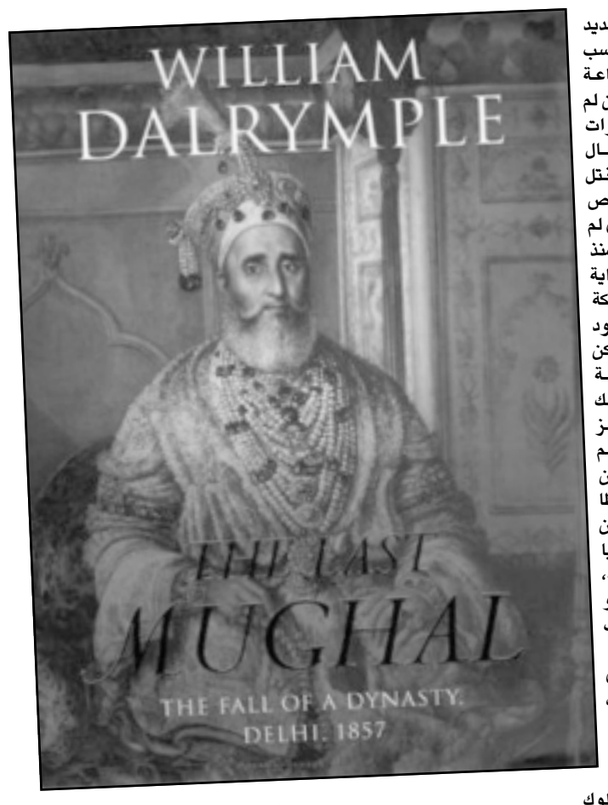

The Last Mughal

The Final of A Dynasty

Delhi, 1857

William Dalrymple

Bloomsbury/ 2006

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

«أكثر من» رواية للسعودي عواض شاهر العصيمي:

رسم على جدار البلدة

فاطمة ناعوت *

■ «أكثر من» هو التعبير الأدق في عنوان رواية «أكثر من صورة وعود كبريت» للروائي السعودي عواض شاهر العصيمي، الصادرة مؤخراً في مصر عن دار «شرقيات». اذ هي بالفعل «أكثر» من مجرد «صورة» عنيدة يرسمها مجهول بقلم الفحم على حوائط البلدة لتنبعث كالفينيق كلما تم محوها وطلاؤها، وهي كذلك «أكثر» من «عود كبريت» يحكه فتى لاه من أبناء البلدة في قمع مفرقعة لتنبثق في هدأة سمَاء الليل ألواناً وطيشاً وصخبًا. عوالمُ كثيفةٌ واسقاطاتٌ سياسية واجتماعية ووجودية لا حصر لها يمكن للقارئ أن يضع اصبعه عليها عبر هذه الرواية التي لم تتعد 170 صفحة ولم يتعد شخوصها المحوريون أفراد أسرة صغيرة من أم وأب وابنهما المراهق. ورغم ضجري من مصطلح «الكتابة النسوية» الذي يتحرش بعباءة وقلم كل كاتبة فتظل متهمةً به الى أن تثبت براءتها، الا أنني سيطيب لي أن أشير باطمئنان الى الخيط الأنثوي في هذه الرواية، بمعنى أن الجمالَ في هذا الكون هو امرأة. فرغم خلو الرواية من قصة حب واحدة، الا أن الأم المشلولة «سجود» ستمثل العنصر البديع للجمال والحياة وسط كائنات ذكورية بالغة العبث والفوضى. الشخوص: حافل، شاب يجد كل متعته في تفجير صواريخه الملونة لكي «تؤدي عروضها الحية فوق الجميع وهي جذلة تصفّر للكبار والصغار»، وأم مقعدة لم تعد سوى «كرتون من الحاجات الزائدة» بتعبير زوجها الذي «غاب في عباءة امرأة شامية شابة وجميلة تدب على قدميها وبقيت هي على كرسي متحرك في بيت فارغ». الأب سعوديٌ والأم من أصل حضرمي. وهنا خيط آخر يناقش الوضعية الاجتماعية لليمنيين في المملكة. صحيح أنها أدارت رأسه بملاحتها بمجرد أن لمحها صبيةً في متجر أبيها فسعى لنيلها بدلا من صديقه الذي كان أوكله لخطبتها، وصحيح أنها كانت نعم الزوجة وأنها أنفقت ثروتها الضخمة كاملة عليه وعلى بيتها، وصحيح أنها أنجبت له الولد الذي لم يستطع أن يأتي به من سواها من النساء، لكنه رغم كل ذلك (أم ترى بسبب ذلك؟) هجرها بمجرد أن مسَّ العجزُ ساقيها، ثم تهافت وراء امرأة كلُّ رصيدها في الحياة حداثة سنها وعينان زرقاوان! سنلمس تواطؤ المرأة مع الرجل لكي يوغل في ظلمها حين تتلمس الأم الأعذار لزوجها الذي هجرها، ما يكشف الغطاء عن طبيعة المجتمع البطريركي الذي ساهمت المرأةُ بالنصيب الأكبر في صناعة طواغيت رجاله. العلاقة بين الضرَّتين التي رسمها الروائيون في مجلدات ضخمة، يوجزها لنا العصيمي في سطور قليلة شديدة البلاغة والتقشف: «تشبه العلاقة بين عمودين متجاورين يحملان سقف بيت واحد لكنهما لا يلتقيان، لو التقيا لسقط البيت». وأما بقية الشخوص فرسمٌ «شبحيٌ مجهول» يضع رسومه على حوائط البلدة في عتمة الليل ويفرُّ دون أن يراه أحد ليقلب أمنَها فزعاً. ثم مجموعة من الشخوص الثانوية مثل بائع البليلة «سلامة الحواز» الوحيد الذي يزعم رؤيته للرسام «الشبح»، وقد أثرى من وراء هذا الزعم. لكن البطل الرئيسي في هذه الرواية، بزعمي، هو «المكان». سوى أنه ليس مكانا مخترَعاً مثل مقاطعة «يوكنا باتوفا» التي رسم لها فوكنر خارطة وهمية وجعل عاصمتها «جفرسون» ثم كتب تحتها «المالك الوحيد وليم فوكنر» ليعبر بها عن الجنوب الأمريكي، وليست هي «حارة» نجيب محفوظ كرمز للعالم بأسره في «أولاد حارتنا»، بل وضع العصيمي عالمه «حارة المساكين» كرمز للمجتمع العربي البدوي الذي تحكمه كثير من مشكلات الوعي والحرية والعدالة. ستطارد الشرطةُ «حافل» الابن لأن اسمه مكتوبٌ تحت هذه الرسوم التي شوهت وجه البلدة. وخلال توقيفه سنقرأ طبيعة العلاقة الملتبسة بين «السلطة» وبين الشعب في كافة أرجاء الوطن العربي. وكيف سيتحول الأبُ (السلطةُ الوسيطة) الى «بوق» أمين يردد كلام الضابط (السلطة الأعلى) أثناء تحقيقه مع ابنه. ولأن النصَّ مفتوحُ الدلالات فهل يجوز لي، بشيء من المكر التأويليّ، أن أعطيه بُعدا اليجورياً سياسياً حيث: «حافل» هو بن لادن لاعب المفرقعات الأشهر، والأم المقعدة «سجود» هي الأنظمة السياسية العربية المتخاذلة، و«الرسام» الشبح هو التطرّف الدينيّ أو شقُّه الميتافيزيقي التغييبيّ، والأب «مطلق» هو السلطة القمعية التي تمارس سطوتَها على الشعب وتبدي ضعفَها أمام السلطة الأكبر: «الشرطة»، التي هي رمز للقوى العظمى أمريكا؟ ورغم هذه الخيوط السياسية والاجتماعية في الرواية، الا أنها مازالت «أكثر» من ذلك. اذ هي رواية تتناول نزعة «البحث» عند الكائن البشري. بحث الخيميائي/باولو كويللو عن الكنز، بحث فاوست/جوته عن الحقيقة والمعرفة، وبحث الشحاذ/محفوظ عن السعادة. «حافل» يبحث عن «التحقق والحضور» في مجتمع لم يعطه حقه من الوجود الانساني، فيروم تحققه في مفرقعات صاروخية ملونة يطلقها في سماء البلدة بجوف الليل ليفزع أهلها من رقادهم ولسان حاله يقول: أنا موجود، وحين أتكلم ينتبه الجميع ويصحون ذاك أن: «الجميعُ يستغل الجميعَ لينفجر».

وعبر هذه المضامين، بوسعنا أن نرصد عدة سمات فنية تمنح هذا العمل صك «الرواية البديعة»، برأيي، لولا بعض الهنات النحوية التي شابت جمالها سيما في الفصول الأخيرة. منها أنها ليست رواية «أحداث» بقدر ما هي «رؤى فلسفية» يستخلصها القارئ عبر القليل جدا من الوقائع.

تمتح زادها الأسلوبيّ من «تيار الوعي» لكن عبر بنية سردية أكثر تماسكاً واحتراماً للحدثية والتراتبية الزمانية مما تعطيه كتابات التداعي الحر والمونولوج الداخلي التي تميز بها رواد هذا اللون الكتابيّ مثل فرجينيا وولف وفوكنر وجويس، ما يجعلنا لا نثق بتثبيتها في خانة تيار الوعي بقدر ما نضعها على الخيط المتأرجح بينه وبين البنية الكلاسيكية للرواية. سوى أن النهايات المفتوحة واتساع قوس التأويل الدلالي ورشاقة الوثب المحسوب بين الاغراق في سرد التفاصيل الصغيرة حينا والمرور السريع على الأحداث الكبرى حينا آخر، والنكوص والمناقضة وحس السخرية الخفيف، كل هذا سوف يقذف بها رأسًا الى خانة التحديث. صوت الراوية يجرد الرمز الفلسفي عبر السرد والحوار دون مصادرة على القارئ بفرض وجهة نظر أو أيديولوجيا بعينها، بل سيترك للقارئ مساحة «التأمل» مشرعةً على اتساعها لكي يبني موقفَه الضدَّ من سلبيات المجتمع. «تشييء» المرأة في مقابل «أنسنة» الأشياء، فالمرأة أحد المتاع التي نحافظ عليها ما دمنا نحتاج اليها، ثم نتخلص منها «الكراكيب» حين تغدو زائدة عن الحاجة، وفي المقابل يتخيل «حافل» مشط الشعر الخاص بأمه كأنه أخوه الأكبر الذي من المفروض أن يكون له الآن أبناء كبار. وفي مشهد بديع شجي وكرديّ فعل انعكاسية تبدأ الأم في فرز كراكيبها قصد التخلص منها حينما تأكدت أنها أصبحت أيضًا أحد هذه الكراكيب. لغة شديدة الشعرية حتى لكأن الرواية في مجملها قصيدة نثر مطولة، اذ نحن بصدد روائي بالغ القدرة على الرسم بالكلمات ما ترسمه الريشة بضرباتها اللونية. والأمثلة عديدة مثل تفنيد عالم البعوض من أسياد وعبيد وشباب وكهول وكيف يختار كل منهم الموضعَ الذي يغزوه من الجسم البشري. ومثل رسمه غرفة الحجز في مخفر الشرطة بوصفها «كيساً ضيقاً من الظلام والبعوض»، ثم الرياح والغبار الذي «شهر أمواسه ورياح يخدش بها المصابيح والوجوه»، والمشلولة التي «لزمت بيتها الصغير برهبانية فتيلة في سراج»، وتشبيه الأب الشرس بـ «المفرقعة ماركة K0201 التي تشتعل بمجرد حك طرفها الحساس بعود ثقاب»، وغيرها العديد من الصور الطازجة التي رسمها الروائي باللون والصوت والحركة.

* شاعرة من مصر

قص

فرن أبي فؤاد

رشاد أبوشاور

على يمين شارع اليرموك، في مخيّم اليرموك، إذا كنتم تتجهون إلى نهاية الشارع باتجاه مقبرة الشهداء الجديدة، سترون تزاحماً لرجال ونساء ينتظرون دورهم أمام فرن، ثمّ يغادر واحدهم وقد تراكمت فوق راحة يده، أو بين كلتي يديه أرغفة ساخنة، تشوي اليدين، بينما البخار يندفع من الأفواه التي تمضغ بتلذذ كسراً ساخنةً.

هذا فرن أبي فؤاد يرحمه الله.

أنا وقفت هنا على (الدور) كثيراً، وأبوفؤاد كان يعاملني على انني (الأستاذ)، مكرّراً عبارة ترحيب من كلمتين:

ـ أهلاً أستاذ..

والأستاذ هو كلّ من لا يعمل شغيلاً كما شغيلّته في الفرن، أو في مهنة يدويّة ما.

الاحترام عند أبي فؤاد لا يعني أن لا تقف على الدور، فهو لا يميّزك عن غيرك، ولذا لن تأخذ (خبزاتك) إلاّ عندما يأتي دورك.

ولأنني أقمت قبالة الفرن بضعة أشهر في غرفة صغيرة انحشرت فيها أنا وزوجتي وابني البكر، فقد نشأت بيني وبين أبي فؤاد صلة جيرة، نمت بعد أن رأى صورتي في الجريدة، فعرف أنني (صحافي)، وكان ذلك في عام 71.

أبو فؤاد مربوع القامة، أميل للامتلاء، شعره متدرّج يمشّطه إلى الخلف، يتداخل في شعره الغزير البياض بالسواد، وجهه بشوش ، يبدو من لطف تعامله مع الزبائن وكأنه لا يبيع الخبز، وإنما يرحّب بضيوف أعزّاء.

منذ الفجر يقف أمام الفرن، يسوّي الطابور، ويحفظ دور كلّ واحد، مع مراعاة النساء اللواتي لا يليق أن ينحشرن بين الرجال، واللواتي ينبغي أن يعدن إلى بيوتهن ليعددن الطعام لأبنائهن وبناتهن، وللأزواج الذين يعودون من العمل منهكين .. أم أنّ كلامي غلط يا حبايبي ؟! ...

قبل وفاته بساعات أوصى أبوفؤاد أبناءه أن لا يغلقوا باب الفرن حداداً عليه، وأن يوزّعوا الخبز على المقبرة عن (روحه)، ولا يحدّوا عليه لأنه حرام أن يتوقّفوا عن تقديم الخبز للناس، حتى يترحّم الناس على روحه، ويتذكّروه بالخير، وهذا ما فعله أبناؤه يوم دفنه.

ما زال أهل مخيّم اليرموك، زبائن أبي فؤاد ومعارفه، كلّما مرّت سيرته في كلامهم يتلون الفاتحة على روحه، مستذكرين وصيّته لأبنائه.

مضت سنوات لم أقف فيها على الدور أمام فرن أبي فؤاد الذي سمعت وأنا في (تونس) أنه انتقل إلى رحمة الله.

شوقاً للمخيّم وناسه، نزلت من سيّارة التاكسي في مدخل المخيّم ، ومشيت متأمّلاً ما طرأ من تغير على الأبنية التي ارتفعت في السنوات الأخيرة بعد أن ازدهرت الحركة التجاريّة، مما دفع بكثير من أصحاب البيوت الواقعة على الشارع إلى بيعها لقاء ثمن لم يحلموا به، أو فتحوا أبواباً للغرف التي تقع على الشارع لتتحوّل إلى مصدر دخل يساعدهم في تحمّل أعباء الحياة.

عندما حاذيت فرن أبي فؤاد، رأيت شخصاً يرتدي نفس سترة أبي فؤاد المخمليّة العسليّة المغطاة بغشاء من الطحين، وقد وخط الشيب شعره الأسود المتموّج، وقد انهمك في توزيع الخبز ، وبين فترة وأخرى تراه يدس كسرة في فمه الذي ينفتح ليخرج منه البخار الساخن.

لوهلة حسبت أن أبا فؤاد لم يمت، ولكنني سمعت صوتاً يعلو:

ـ يا سيّد فؤاد خلّصنا، نحن نقف على الدور منذ ساعة.دخنا من التعب ...

عندما لحظني أقف وأنا أتأمّله، وقد تأكّدت من أنه فؤاد الإبن الأكبر، ابتسم، وناولني رغيفاً ساخناً، وهو يرحّب بي:

ـ أهلين بالأستاذ ..زمان ما شفناك ! دائماً نتذكّر عبارتك: من أكل من خبز فرن أبي فؤاد لا بدّ أن يعود له ! .

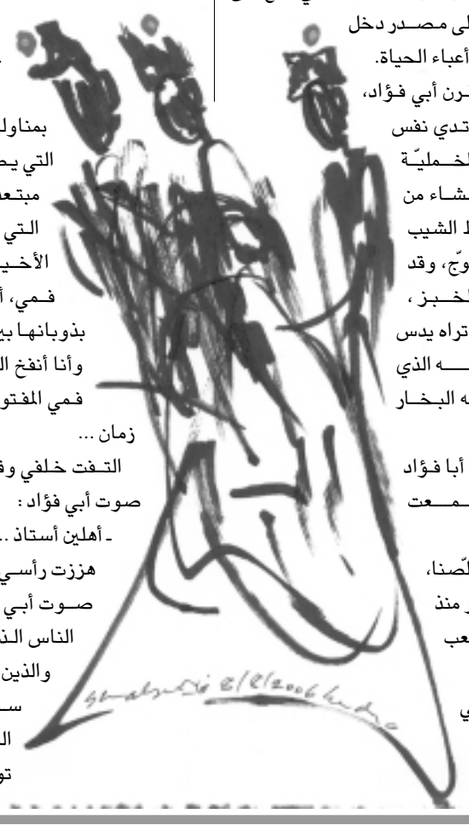

ـ وها أنا ذا قد عدت ..يرحم الله أبا فؤاد .

لمّا أدار ظهره منشغلاً بمناولة الزبائن كميّات الخبز التي يطلبونها، تحرّكت ببطء مبتعداً، متأمّلاً المحال التجاريّة التي نشأت في السنوات الأخيرة. وضعت لقمات في فمي، أخذت في الاستمتاع بذوبانها بين أسناني، وفوق لساني، وأنا أنفخ الهواء الساخن اللاسع من فمي المفتوح ، مثلما كنت أفعل أيّام زمان ...

التفت خلفي وقد هيّء لي بأنني أسمع صوت أبي فؤاد :

ـ أهلين أستاذ ...

هززت رأسي مندهشاً من وضوح صوت أبي فؤاد، وغبت في زحام الناس الذين تكتظ بهم الأرصفة، والذين يتقافز كثيرون منهم بين سيل السيّارات المتزاحمة التي تطلق أبواقها منبهةً بلا توقّف ...

عدد جديد من شهرية «وجهات نظر» واهتمام بالغ بهزيمة الجمهوريين

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد الجديد من شهرية «وجهات نظر» متضمنا مقالة افتتاحية لرئيس التحرير سلامة أحمد سلامة تحت عنوان «مأزق الخروج من جحيم العراق» يناقش فيها وضع القوات الأمريكية الصعب في العراق وكذلك الأوضاع الداخلية الأمريكية الصعبة بعد انتخابات مجلس الشيوخ والكونغرس بالولايات المتحدة واقصاء الناخب الأمريكي لتيار المحافظين الجدد، كذلك يتناول سلامة نصائح كيسينجر بعدم الخروج المبكر من العراق محذرا من أن هذا الخروج سوف تكون له نتائج كارثية، ليس فقط على العراق ولكن أيضا على منطقة الخليج بأسرها حيث التجمعات الشيعية القوية، وهو ما قد يؤدي في رأيه الى حروب طائفية لا تنتهي بين الشيعة والسنة، بل وبين الشيعة وبعضهم البعض، وقد ينقضي زمن طويل قبل أن يستعيد العراق وحدته، وهو الأمر الذي يرى سلامة أنه مزعج بشدة لاسرائيل، فاذا تمزق العراق ستبرز ايران كقوة اقليمية نافذة في المنطقة، ولن يجرؤ رئيس أمريكي في المستقبل القريب على توجيه ضربة اليها، وهي تواصل باصرار العمل في برامجها النووية وتحرز فيه تقدما ملموسا.

ويرى سلامة أن أمريكا ليس لديها الاستعداد حتى الآن لدفع ثمن ما تطلب من الدول النافذة في العالم وكذلك دول الطوق، ويقول ان هذا ما ألمحت إليه الاتصالات المبدئية التي جرت بين بيكر والايرانيين، بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أي شيء دون مقابل.

كما يشير سلامة الى أن واشنطن لم تبد اهتماما يذكر ببالونات الاختبار التي أطلقها توني بلير ودعا فيها الى ضرورة توسيع نطاق الحوار مع ايران وسورية ليشمل مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي باعتبارها أم المشاكل، ويختتم سلامة مقاله بالقول: لا تبدو في الأفق نهاية سعيدة أو محددة لكيفية خروج القوات الأمريكية من الجحيم الذي أشعلته في العراق، وقد كانت إيران هي الأسرع في مواجهة التطورات الأخيرة بتحركات أبرزتها كقوة اقليمية تملك أوراقا قوية للمساومة والدفاع عن مصالحها، حين دعت الى قمة ثلاثية تضم سورية والعراق في طهران.

كذلك تضمن العدد قراءة لمدير تحرير المجلة أيمن الصياد حول مشكلة الحجاب التي أثارتها مؤخرا تصريحات وزير الثقافة فاروق حسني، ويخلص الصياد في مقالته الى أن مشكلة الحجاب تخفي وراءها مشكلات ضخمة وأوسع مما هو ظاهر على السطح، وينتهي الى انتقاد موقف المثقفين المدافعين عن حرية الرأي وحرية الفعل مستثنين من ذلك حرية المتدينين في التمسك بدينهم أو الجهر به، كذلك يعبر أيمن الصياد عن دهشته ممن انبروا تحت قبة مجلس الشعب مدافعين عن الدين الذي اعتبروه مجسدا في غطاء الرأس في الوقت الذي يبدو بعضهم وقد تلوث ضميره.